والآن هاك هذه الفرائد

وخير جليس في الأنام الكتاب

يقول أبو الطيب:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سرج سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الأنامِ كتابُ

فانظر كم اهتدى إلى معنى ثمين رائد، ثم أخذه فغَسَلَهُ وكواه، ووضعه وطبعه، وفصله بلفظ ساطع، وتركيب متناسق خلاب، فهل سبقه شاعر إلى اختراع هذا المعنى؟! إنه يقول لك: إن أشرف موضع يقعد فيه كل ماجد نبيل هو ظهر الفرس، حيث يقاتل العدو، ويحمي الحوزة، ويذود عن العرض، ويدافع عن الكرامة، ويبني المجد، وإن أفضل المجالس للمرء كتاب؛ حفظًا للعهد، واستثمارًا للوقت، وبعدًا عن الأذى، ومراعاة لحق الجليس، وإمدادًا للعقل، ولكن أعد النظر في رصفه للكلمات الحرة الراقية، وبنائه للبيت بلا نشاز ولا التواء، إن من الشعراء من قد يجود بهذا المعنى؛ لكنه يضعه في قالب فج بكثرة حروف الجر والضمائر، والتقدير، والتأخير، والإسفاف، والحشو.

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

يقول:

وذو العقلِ يشقى في النَّعيم بعقلِه وأخو الجهَالةِ في الشقاوةِ ينعمُ

لله دره، هكذا فلتكن الذاكرة الحية، والذهن الخصب الممرع، والتجربة الراشدة، إن العاقل الأريب لا يقر قراره لعطشه، ومعرفته بتغير الأيام، ودوران الليالي، ومفاجأة الحوادث، وهجوم المزعجات، أما الغبي الحافي، فهو كالبهيمة لا يرى إلا موطن قدميه، فهو في شقاوته يتنعم لجهله بالعواقب، وقلة خبرته بالنوائب، وانطماس بصيرته عن مشاهدة سنة الحياة؛ من العسر واليسر، والغنى والفقر، والسرور والحزن﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [**الفرقان** : ٤٤].

يقول شكسبير: «الذكي يعيش من جنته في جحيم، والغبي يعيش من جحيمه في جنة»، ولكن تبقى الريادة للمتنبئ والسبق.

مصائب قوم عند قوم فوائد

يقول:

بذا قضتِ الأيامُ ما بين أهلِهَا مصَائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

فتطير هذه الحكمة في الآفاق، وتجري على الألسنة ، وتكون حاضرة على شفاه الخطباء والحكماء، وتشاهد على البيت توقيع المتنبي الخاص الذي يميزه عن غيره، وانظر إلى جملة «بذا قضتِ الأيامُ ما بين أهلِها» فإذا هي عبارة مستقيمة صحيحة لا عوج فيها ولا أمتًا، ثم انظر إليه وهو يتسفز ذهنك لتترقب الحكمة القادمة فيبادرك بها: «مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ»، فتكون هذه الحكمة ناطقة بعمق الرجل، وذكائه وسعة تجربته، وهو الاستفادة من نكبات الغير، وأخذ العبرة من ذلك، وهو منطق القرآن ﴿ **.. فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ** ﴾ [**الحشر** : ٢].

والمتنبي قدير في جلب الحكمة الصادقة، وفى سبك اللفظ الجميل، فليس شعره من شعر الأعراب الساذج الباهت، وليس من شعر حفظة المتون العلمية المقننة المتكلف، بل هو سائغ للشاربين، يسر الناظرين.

ولا التذكير فخر للهلال

يوم رثى والدة سيف الدولة قال:

ولو كانَ النساءُ كمن فَقدْنا لفضلتِ النساءُ على الرجالِ

فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

فأنت تشاهد انسيابًا لذيذًا لايعكره حشو في اللفظ، ولا يكدره غرابة في اللغة، ولا يشوهه تبذل سوقي، بل تشاهد الفخامة، فهو يمهد لك بالبيت الأول حتى إذا تهيأت لسماع النظرية، واستقبال الدليل باشَرَكَ بالبيت الثاني في رقة وعذوبة، فكأنك تمضغ سكرًا، أو تمص عنبًا، خلاف ما تشاهده في كثير من الشعر الإنشادي الإنشائي أو التقريري الإخباري، أو الغريب الوحشي، ولهذا بز المتنبي الشعراء في هذا الباب.

ذكر الفتى عمره الثاني

يقول:

ذكرُ الفتىَ عمرُه الثاني وحاجتُه ما قاته وفضولُ العيشِ أشغالُ

فهذه ثلاثة مقاطع من الحكمة النادرة، والوعي الراشد، والتجارب المماثلة وما هذا الرجل إلا فيلسوف متأمل، يستولي على مكان الإعجاب فيك، وانظر إلى

إيجازه وفصاحته في قوله: «ذكر الفتى عمره الثاني»، انتهى المقطع ليكون قطعة ماس، أو حبة لؤلؤ مائسة، تقلبها في يدك فتزداد شرفًا وبريقًا، ولك أن تحدث العقلاء في مسألة الذكر الحسن فتقول: «ذكرُ الفتى عمره الثاني»، فتقنع الجميع بجلالة هذا الأمر والترغيب فيه، ثم تقول: «وحاجته ما قاته»، فتطبع درسًا في القلوب، درسًا لا ينسى في علم القناعة، بأقل لفظ، وأخف قول، وأصدق عبارة، ثم تقول: «وفضولُ العيشِ أشغالُ»، فتزّهد الناس في التكاثر، والانهماك في الجمع والتكالب على الدنيا، فإذا عبارة «وفضولُ العيشِ أشغال» كتاج مرصع على هامة كريمة، أو خاتم على رسالة، أو عنوان على كتاب، وانظر إلى قدرته في طي مسافات المعنى في اقتصاد من القول، وأبهة من البلاغة.

إن الثناء على التنبال تنبال

يقول:

وقد أطالَ ثنائِي طُولُ لابسِه إن الثَّناءَ على التنِّبالِ تنبالُ

ومعنى كلامه أننى قد أطلت الثناء على هذا الممدوح لكثرة مناقبه، وجلالة قدره، وغزارة خصاله؛ فلذلك وجدت مجالًا للكلام، بخلاف التنبال الذي هو القصير القزم التافة، فإن الثناء عليه قصير وشحيح؛ لأنه لا مجال للإسهاب في وصفه ومدحه، وقد أراد في هذا البيت أن يعتذر من الإطالة، فأتى بأحسن المدح في ممدوحه، ثم ختم البيت بقضية عادلة، وكلمة سائرة، وهي أنه بحسب الممدوح كرمًا ولؤمًا، يكون المدح طولًا وقصرًا، كما أن الثياب تفصل على طول الناس وقصرهم، فكذلك الثناء، وهذا من دقيق نظره، وجدارته من اقتناص المعاني.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

يقول:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمردا

معناه: أن الكريم تملك وده ووفاءه بالإحسان إليه؛ فيكون لك مواليًا مصافيًا حافظًا لجميلك، ذاكرًا لإحسانك، بخلاف اللئيم، فلا يزيده الإحسان إلا تمردًا وتنكرًا؛ لخبث طبيعته، وسوء سيرته، ولؤم خلقه. وأكثر الناس يعرفون هذا المعنى، لكن تقديمه لهم في عبارة شاردة، وحكمة فائقة، مطلب يهش له العقلاء، ويتوق له الأدباء، وقد قلنا لك: إن المتنبي لا يعاضل بين الكلام، ولا يثقل البيت بالضمائر، وحروف الجر، والتقديم والتأخير، كما يفعله صفاف الشعراء، الذين يثقلون السامع بحشو الكلام، وزائد القول. وكم سمعنا من عامة الناس من يردد هذا البيت فضلًا عن طلبة العلم، وما ذاك إلا لاستيلاء هذا الشاعر عرش الشهرة، وامتلاكه ساحة الأدب، وامتيازه بالأسر والتأثير.

غرقت فيه خواطره

يقول في ممدوحه:

إذا تَغَلغْلَ فكرُ المرءِ في طَرَفٍ من مجدِه غرقتْ فيه خَواطرُهُ

فهو هنا يترقى بك عن مدح الأعراب المكشوف إلى مدح دقيق، ومعنى عميق، يدل على علو كعبه في سعة الاطلاع، ورحابة المعرفة مع جودة الخاطر يقول هنا: إن هذا الممدوح إذا غاص فكر الإنسان في جزء واحد من مجده الواسع،

ومواهبه الجمة؛ استغرقت هذه الصفات كل خواطر هذا الإنسان، واستولت على ذهنه وحيرته، فكيف بباقي صفاته وسائر خصاله، وهو ثناء نادر وقوعه في المدائح لدقته وغرابته، ولكنه لذيذ تعشقه النفوس؛ لأنه فريد متوهج.

obeikandl.com